﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من أعظم نِعَمِ الله على البشَرِ نِعمةُ الإيجادِ ونعمةُ إظْهارِ تفْضيلِهم أمامَ الملائكةِ

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى حُدوثَ الإنْسانِ الأوَّلِ، واسْتَدَلَّ بِذِكْرِهِ على وُجودِ الإلَهِ القادِرِ المُخْتارِ، عطفَ عليه ذكرَ واقعةِ خلْقِه، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لمّا كانت نعمةُ الإيجادِ كافيةً في إخلاص العبادةِ للموجِدِ سُبحانه، ثمَّ لم يعتبرْها أهلُ الضَّلال، أشار تعالى إلى نعمةٍ هي أكبرُ منها، وهي التّفضيلُ على جميع المخلوقاتِ على وجْهٍ مُبيِّنٍ لسببِ الضَّلالِ، فجاءت هذه الآيةُ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خَلْقُ اللهِ الإنسانَ من طينٍ يابسٍ من أبْرَزِ الأدلّةِ على القُدرةِ الإلهيَّةِ

هنا يُحدّثُ القرآن عن أنَّ اللّه ﷻ قد آذن الملائكةَ قبلَ خلق آدمَ، وقبلَ ميلادِه المُنتظرِ في سلسلةِ التَّطوُّر، آذنَهم سُبحانه بأن يَنتظروا ميلادَ هذا الكائنِ، هذا الإنسانِ، الذي ينطقُ، ويعقلُ، ويكونُ خليفةَ اللّه في الأرض، فقال: واذكر أيّها الرَّسولُ ﷺ إذ قال ربُّك للملائكة - الَّذين لا يعصون اللّه ما أمرَهم ويفعلون ما يُؤمرون - ولإبليسَ وكان معهم: إنّي سأخلُق بشرًا من طين يابسٍ أسودَ مُتغيّرِ الرّيح، له صوتٌ إذا نُقِرَ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ مجيءِ قصّةِ آدمَ بعدَ ذكْرِ الحشْرِ:

لَمّا تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ قصَّة آدمَ في أوائِلِ البَقَرَةِ عَقِبَ ذِكْرِ الإماتَةِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/53.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/233، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/38.

الحذَرُ من كيْدِ الشّيطان في الدُّنيا سببٌ للسّعادةِ يومَ القيامةِ

والإحْياءِ والرُّجوعِ إليه تعالى، وذُكِرتِ القصَّةُ في الأعْرافِ بعد ذكْرِ يَومِ القيامةِ، وذكْرِ الموازينِ فيه، وفي الكهفِ بعد ذِكْرِ الحَشْرِ، وكذا في سورَةِ ص بعد ذِكْرِ ما أعَدَّ منَ الجَنَّةِ والنّارِ لِخلْقِه، دلَّ على أنَّ من عادةِ القرآن أنَّه حيثُ ذَكَرَ مُنْتَهَى هذا الخَلْقِ ذَكَرَ مَبْدَأهُم وقِصَّتَهُ مع عَدوِّهِ إبْليسَ ليُحَذِّرَهُم مِنْ كَيْدِه، ولِيَنْظُروا ما جَرى له معه حتَّى أخْرَجَهُ مِنَ الجَنَّةِ مَقَرِّ السَّعادَةِ والرّاحَةِ، إلى الأرْضِ مَقَرِّ التَّكليفِ والتَّعَبِ، فيتحَرَّزوا من كيدِه[1].

سِرُّ البَدءِ بقولِه ﴿وَإِذۡ﴾:

خَلْقُ اللهِ تعالى لآدمَ وما جَرَى فيه أمرٌ عظيمُ الشَّأنِ يَنْبغي تذكُّرُه والتَّذكيرُ به

لمّا كان لفْظُ (إذ) إذا جاء في صدْرِ الكلامِ إنّما يأتي لِما عظُمَ شأنُه، بمعنى (واذكر إذ)، وكان مقتضَى الظّاهرِ إيرادَ الكلامِ على منهاجِ ما قبْلَه منَ الأقوالِ المَحكيّةِ المُتّصلةِ به أفاد أنَّ تصديرَ الآية به إيذانٌ بأنَّ ما في حيّزه أمرٌ عظيمٌ يَنبغي الاستماعُ إليه، وذلك بذكْرِ نِعمةٍ جليلةٍ حقيقةٍ بالذِّكْرِ والتَّذكيرِ على حيالِها، لِيُؤْذَنَ بأنَّ خلقَ آدمَ وما جرَى فيه من سُجودِ الملائكةِ وإباءِ إبليسَ أمرٌ عظيمُ الشّأنِ يَنبغي تذكُّره والتّذكيرُ به[2].

دَلالةُ الإخْبارِ في ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾:

إظهارُ فضلِ آدمَ بإعْلامِ الله تعالى المَلائكةَ بخلْقِه

لمّا جاء الكلامُ على طريقِ الإعلامِ بخلْقِ آدمَ ولمّا يَخلُقْه اللّه بعدُ، وكان الإخبارُ لجميعِ الملائكةِ أفادَ تفخيمَ أمرِ مَن سَيخلُقُه، وأنَّ له شأنًا في خلْقِه، فإنَّ الملكَ إذا أرادَ أمرًا عظيمًا ظاهرًا أعلَنَه أمامَ الملأ.

سببُ إيثارِ الرُّبوبيّةِ والإضافةِ في ﴿رَبُّكَ﴾:

أمرُ المَلائكةِ بالسّجودِ لآدمَ مِن إحْسانِ الله تعالى لرَسولِه ﷺ

في التّعرُّضِ لوصْفِ الرّبوبيّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ الخطابِ المُرادِ به رسولُ اللّه ﷺ إشعارٌ بعِلّيّةِ الحُكمِ، فيفيدُ أنَّ أمرَ الملائكةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/476.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/87.

بالسّجودِ لآدمَ من إحْسانِ اللّه تعالى لرسولِه ﷺ، وأنَّ اللّه تعالى شرَّفَ آدمَ عليه السلام لشَرفِه ﷺ[1].

دَلالةُ ﴿إِنِّي﴾ في قولِه ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ﴾:

تحقُّقُ وقوعِ خلْقِ الله آدمَ قبْلَ خلْقِه

في قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ أفادتْ ﴿إِنِّي﴾ المُبالغةَ في تحقُّقِ وقوعِ خلْقِ اللّه ﷻ لآدمَ عليه السلام على غيرِ مثالٍ سبق.

نُكتةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ فاعلٍ في قولِه ﴿خَٰلِقُۢ﴾:

ما شاءَ الله كانَ وما لم يشأْ لم يَكُنْ

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ غيرِ المُضافِ دونَ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ بأن يقولَ (إنّي أخلق بشرًا)، أوِ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ المضافِ بأن يقول (إني خالقُ البشرِ)؛ لأنّ في صيغةِ اسْمِ الفاعلِ غيرِ المضافِ ما ليس في صيغةِ اسْمِ الفاعلِ المضافِ، ولا في صيغةِ المضارعِ، منَ الدَّلالةِ على أنَّه تعالى فاعلٌ له فيما سيأتي البتّةَ لا محالةَ منْ غيرِ صارفٍ يَثْنيه ولا عاطفٍ يَلويه، وفي مجيءِ صيغةِ اسْمِ الفاعل تعبيرٌ عنِ المستقبلِ بلفْظِ الحالِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿بَشَرٗا﴾:

بَديعُ خلْقِ الله بتصْويرِ البشرِ في أجْمَلِ صورَةٍ مع أن أصلهم من حمإٍ مسنونٍ

لمّا كان المرادُ منَ البشرِ هو الإنسانُ، فَلِمَ عبّرَ بلفظِ البشرِ دونَ الإنسانِ مع قُرْبِ ذكْرِ الإنسان؟ وجوابُه أنَّه ذكرَ الإنسانَ في معرضِ المُقابلة مع الجانِّ، ولمّا جاء ذكْرُ الأمرِ بسجودِ الملائكة له ذكرَه بوصْفِ البشريّةِ اعتبارًا بظهور بشَرته أي ظاهرِ الجلْدِ أو باعتبارِ مُباشرتِه وملاقاتِه لغيرِه؛ لِيفيدَ أنَّه جسمٌ كثيفٌ مخالفٌ للملائكة، فيكونُ اللّه تعالى قد أخبَرَ الملائكةَ بعَجَبٍ عندهم، فهم مَخلوقون من نورٍ، فيكونُ السّجودُ له باعتبارِ وصْفِ البشريَّةِ أدلَّ على الائتمارِ، كما أنَّه لمّا كان لفْظُ البشرِ يومِئُ إلى حُسنِ الهيئَةِ؛ لاشتقاقِه من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/53، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.

البشارةِ كما ذهب إليه بعضُ اللُّغويّين أفادَ أنَّه بعدَ خلْقِه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ سيكونُ حَسَنَ المنظرِ بعدَ تسْويَتِه ونفْخِ الرّوح فيه، كما أنَّ التَّعبيرَ بلفظِ البشرِ تأكيدٌ لكوْنِ المرادِ منَ الإنسانِ في الآيةِ السّابقةِ هو آدمُ عليه السلام[1].

فائدةُ تنْكير ﴿بَشَرًا﴾:

الإشعارُ بعُلوِّ شأنِ البشرِ من أوّلِ الخطابِ لإظْهارِ فضْلِه أمامَ الملائكةِ

أفادَ تنكيرُ ﴿بَشَرًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ تفخيمَ البشرِ؛ للإشعارِ من أوّلِ الخطابِ وقبْلَ الأمْرِ بالسّجودِ له بعُلوِّ شأنِه، لتَوْطينِ الملائكةِ على الائتمارِ بالسُّجودِ له، إذ هو المُفضَّل عليهم.

سببُ تَكرار ﴿مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾:

القادرُ على النَّشأةِ الأولَى قادرٌ على النَّشأةِ الأُخرَى

كرّرَ البيانُ الإلهيُّ ذكْرَ مبدأ خلْقِ البشرِ لتأكيدِ الأمرِ، كما أنَّ ذكْرَه في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ في معرِضِ بيانِ الدّلالةِ على كمالِ القُدرةِ الإلهيّةِ، وبيانِ أنَّ القادرَ على النّشأةِ الأولَى قادرٌ على النّشأةِ الأخرى، وأمّا في هذه الآيةِ فذكَرَ مبدأ الخلْقِ ليبيِّنَ للملائكة اختلافَ خلْقِه عن خلْقِهم، وأنَّه أمرَهم بالسّجودِ له مع أنَّ مادَّته من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ؛ ففيه تَعجيبٌ من تنوّعِ خلقِ اللّه تعالى، وليَعْلَموا أنَّ شَرَفَ المَوْجوداتِ بِمَزاياها لا بِمادَّةِ تَرْكيبِها[2]، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ الأمرَ بالسّجود تشريفٌ لآدمَ عليه السلام واختبارٌ للمأمورين، ولهذا علّلَ إبليسُ الامتناعَ من سجودِه بذكْرِ مبدأ خلْقِ آدمَ عليه السلام، كما سيأتي، وتفصيلُ الكلامِ على قولِه تعالى: ﴿مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 276، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنسانُ والبَشرُ:

البَشرُ يُباشرُ ويُلاقي والإنسانُ يُؤنِسُ من يكونُ معه

ذهب بعضُ اللّغويّين والمُفسّرين إلى أنَّ المرادَ من لفْظِ البشرِ كونُه يُباشرُ ويُلاقي، والبَشَرةُ هي ظاهرُ الجِلْد من كلِّ حيوانٍ، أو يكونُ التّعبيرُ بلفْظِ البشرِ على معنى البشارة بحُسنِ الهيئةِ والقَوام، وأمّا الإنسانُ فهو خلافُ الجانّ، وهو مشتقٌّ من الأُنس الذي هو خلافُ النُّفور، والإنسيُّ منسوبٌ إلى الإنس يقال ذلك لمن كثرَ أُنسه، ولكلّ ما يُؤنسُ به، فيكون لكلِّ لفظٍ منَ البشرِ والإنسانِ اعتبارُه عندَ الإطلاق، ولهذا ذكرَ اللّه تعالى الإنسانَ في مقابل الجانِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: 26 - 27] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥﴾ [الرحمن: 14 - 15]، أي لأنّ الإنسانَ يُؤنسُ بظهوره، والجانَّ يَستترُ، وذهب آخرون إلى أنَّ الفرقَ بينَهما هو أنَّ المرادَ بالإنسان البدنُ مع الرّوح والمرادَ بالبشرِ الجسدُ الخالي منَ الروح(1).

(1) الراغب، المفردات: (أنس)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/148.